قرون من الظلام والجهل والتخلف انتهت عند موعد اهتكاك الغرب بالشرق من خلال الحروب الصليبية فاجمعوا مخطوطات العلوم الأغريقية والرومانية اللي حفظها المسلمين بدون ما يفهمون منها شيء وهكذا سلموا الأمانة للأوربيين وعادوا إلى خيامهم وجمالهم ونمط حياتهم في حين مضت أوروبا إلى عصر النهضة وعصر الأنوار ونشر العلم والحضارة والمعرفة من جديد وهكذا تخلصنا من العصور الوسطى يعلق أستاذ التاريخ مارك جرهام قائلا ما سيفاجأ الملايين من الناس من هذه الأجيال الذين أجبروا على تعلم هذه الرواية للأحداث هو أن ذلك محظو خرافة وين تكمن الخرافة في هذه الرواية؟ وما هو الجزء المفقود من حكاية العصور الوسطى؟ المترجم للقناة يلخص المؤرخون الغربيون قصة العصور الوسطى على الشكل التالي بعد سقوط روما انتهت العصور القديمة الزاخرة بالإنتاجات الفلسفية الأغريقية وإبداعات النظم القانونية الرومانية وبدأت العصور الوسطى التي أصبحت السيادة فيها للكنيسة فعم الجهل وهيمن التخلف واحتقر العلم مدة طويلة من الزمن ولكن بعد ذلك وتحديدا في القرن الخامس عشر والسادس عشر راحت ثور الناس ضد الكنيسة ويتخلصون من قيودها وأغلالها لتحدث نهضة علمية وأدبية وفنية مرتكزة على التراث اليوناني الغديم فكانت تلك هي لحظة ولادة عصر النهضة العصر الذي أنقذ البشرية من الجهل والظلام ونقل إلى بحار العلم والتنوير ولكن إذا بحثنا وراء هذا التقسيم سنجد يقوم على فكرة أساسية جعلت هذا التقسيم ضروري لبناء السردية بشكل كامل وهي فكرة تشويه دور الدين الحضاري وخلق أسطورة عصر النهضة أوروبا في هذه الفترة كانت السيطرة العلمية فيها للكنيسة اللي كانت تقف في وجه المعرفة ونشر التعلم والقراءة والكتابة والتافع الأول لمحاربة العلم كان بهدف منع عمة الناس من الوصول إلى مضمون الكتاب المقدس بدون وسيط من الكنيسة فبحسب اعتقادهم أنه ليس كل الأشخاص مؤهلين لقراءة هذا الكتاب لذلك من الأسلم أن يبقى المجتمع جاهل وهذا التوجه الكنسي وافق هوا ملوك أوروبا والتحد مع أهدافهم فمن جهتهم اعتقدوا أن تجهيل شعوبهم يضمن لهم الاستقرار السياسي والأمن المجتمعي فجاءت فكرة حصور الظلام لإثبات أن الدين كان يقف خلف هذا الجهل والتخلف وأن التخلص منه هو الحل الأسلم لخلاص البشرية وتقدمها وهذا ما حصل في عصر النهضة لما انسلخ علماء الغرب من الدين وتحرروا من مبادئ وقيودة وبدأوا بالاهتمام بالعلم الوضعي فانطلق عصر النهضة وتمجيد العلم والمعرفة من ذاك الوقت حتى يومنا هذا تستمر نفس الرواية خلاصتها أن إعادة الاعتبار للدين وتفعيل أحكامه في الحياة العامة سيرجع الناس لعصور الوسطى وعصور التخلف والظلام لكن هذه النتيجة التي توصل لها الفكرة الغربية أغفلت أمرين في غاية الأهمية الأول هو أن حالة الانحدار والتخلف الأوروبي لم يكن من الدين نفسه بل من استبداد رجال الكنيسة أما الأمر الآخر الذي لم ينتبه إلا قليلا من المؤرخين هو أن أوروبا ليست هي العالم وأن تخلف الغرب لا يعني تخلف الشرق إذا استوعبنا هذه النقطتين سيتحطم أمامنا جانب كبير من خرافة العصور الوسطى فمصطلح العصور الوسطى له دلالة سلبية مرتبطة بالجهل والظلام والتخلف وبنفس الوقت مصطلح يستخدم لوصف حقبة زمنية محددة من التاريخ الأوروبي لذلك من الخطأ تعميمه واستخدامه لوصف حقبة زمنية تخص تاريخ آخر مثل التاريخ الإسلامي يعني ببساطة لا يمكننا أن نقول عن مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي عصور وسطى إسلامية إلا في حالة واحدة فقط إذا كانت هذه المرحلة متزامنة مع العصور الوسطى الأوروبية وتتطابق أحوالها وأوضاعها وتتشابه بين العالمين العالم الإسلامي والأوروبي فهل كان هذا الأمر متحقق؟ من خلال كتاب لماذا لم توجد عصور وسطى إسلامية يأخذنا المؤرخ توماس باور في رحلة عبر الزمن لمشاهدة ظواهر الحياة اليومية والاجتماعية والثقافية في العالم الإسلامي والعالم الأوروبي في تلك المرحلة من الظواهر اللطيفة التي التقطها توماس باور للتعبير عن الفارق الحضاري انتشار الحمامات العامة فيذكر أن ثقافة بناء الحمامات العامة وارتيادها كانت منتشرة بشكل واسع في العالم الإسلامي ليس فقط في المدن المنشأة حديثاً بل حتى في المناطق الريفية والمدن الهامشية فكان ارتياد الحمامات جزء من حياة الناس فالبعض يذهب للحمام من أجل المتعة والاسترخاء والبعض يذهب من أجل الطهارة الدينية مثل الوضوء والاغتسال وكان من ثقافة الناس ارتياد الحمام قبل ارتداء الملابس الجديدة ولما يتعافى الانسان من مرض وكذلك يعتبر ذهاب للحمام شيء أساسي بالنسبة للعريس وأصدقائه استعداداً للاحتفال بالزواج ولو وجهنا النظر لرصد هذا الجانب في مدن أوروبا في ذاك الوقت مثل باريس وروما وغيرها سنكتشف أنه من غير المتصور أن الانسان الأوروبي يذهب للحمام للاغتسال أو لأي غرض من الأغراض والسبب بكل بساطة لا يوجد حمامات عامة هناك أصلاً زاوية أخرى يلتقطها المؤلف لمقارنة العصور الوسطى الغربية بنفس الفترة الزمنية في العالم الإسلامي وهي الأمية فالأمية كانت الوضع الطبيعي في العالم الغربي القراءة والكتابة مهارة استثنائية لا يملكها للنوادر للعام ستمية من الميلاد لم يكن في أحد عنده القدرة على الكتابة غير رجال الدين وبالمقابل كانت نسبة الأمية متدنية جداً في العالم الإسلامي فغالب الناس يعرفون يقرؤون ويكتبون ابتداء من الخليفة الذي دائماً يكون مثقف ثقافة عالية ورفيعة وجار تأديبه وتعليمه

Summarized by © lakhasly.com

على يد أشهر الشيوخ والمعلمين وانتهاء بالأوساط الحرافية التي أخرجت شخصيات أدبية وعلمية تملأ كتب التاريخ وفي الوقت الذي كان فيه معظم فرسان الحروب الصليبية أميين كان في الجانب الآخر يقاتلهم أسامة بن منقذ القائد البطل والكاتب الأديب وبجانب معاركة بطولية كان يكتب القصائد والمذكرات ويسجل مختارات الأدبية على مستوى آخر يرصد المؤلف التباين بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية على مستوى التسامح والانفتاح على الآخرين فكراهية الأجانب كانت غريبة على المجتمعات الإسلامية في ذاك الوقت خاصة أن أغلب المجتمعات كانت متعددة لعراق وكلها تم استيعابها في إطار الإسلام لذلك لم يشعروا بأن الأجانب مهددين لهويتهم على عكس صورة العالم المتمركز عرقيا التي ميزت العصور الوسطى تميل مثل ما يعبر توماس باور إلى الحط من جميع البشر الذين لا ينتمون إلى دائرتهم الثقافية هذا الأمر إن عكس على تقبل المجتمعات الإسلامية لوجود أقليات دينية تعيش بينهم وتكفل لهم حقوقهم دون التعرض للظلم والاضطهاد لذلك يقول توماس باور أن وجود غير المسلمين في العالم الإسلامي كان أمر طبيعي جدا أما وجود غير المسيحيين في العالم المسيحي كان أمر مستحيل باستثناء بعض اليهود الذين عاشوا تحت ظلم والاضطهاد ولفهم الحال الذي كان عليه اليهود في العالم المسيحي عندما اجتاح الطاعون أوروبا كان اليهود أول المتهمين بالتسبب في هذا المرض بعدما أشريع عنهم أنهم سمموا الآبار نتيجة لهذا قررت عشرات المدن الألمانية مداهمة منازل اليهود وأطردهم من هذه القرى وفي سويسرا أعدم عشرات اليهود حرفيا بسبب هذه الاتهامات أما ميدان العلم والمعرفة فالنهضة العلمية الشاملة في العالم الإسلامي معروفة وأشهر من أن يذكر فيها فالزمن الذي كان يسمى عصور وسطى مظلمة في أوروبا كان يطلق عليه المؤرخين العصر الذهبي في الإسلام على مستوى المؤسسات التعليمية انشأت أول جامعة في العالم وهي جامعة القرويين في فاس وتأسس بيت الحكمة الذي يعتبر أضخم مؤسسة علمية تختص بترجمة التراث اليوناني والفارسي والهندي والسرياني وكانت هناك نهضة ثقافية واهتمام بالمكتبات على وجه الخصوص وظهرت بالحضارة الإسلامية أنواع متعددة من المكتبات فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء وفي المدارس والكتاتيب والجوامع وكما وجدت في المدن الكبرى ووجدت كذلك في القرى النائية والأماكن البعيدة ومن أشهرها بيت الحكمة في بغداد ودار الحكمة في مصر ومكتبة قرطبة والقائمة تطول وفي هذا يقول ويلد يورنت مؤرخ الحضارات ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم اللهم إلا في بلاد الصين في عهد مينغ وانغ ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة وكل هذا يجعل فكرة العصور الوسطى محف خرافة لا تنطبق بأي حال من الأحوال على العالم الإسلامي وطالما أتينا بذكر الصين كيف كانت أحوالها في ذلك الزمان من جهة التحظر والتخلف عاشت الصين قمة ازدهارها الحضاري في عهد سلالة صونغ اللي استمرت بين القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي فشهدت نهضة علمية وأدبية وتجارية وصناعية ففي عام ألف وخمسة واربعين من الميلاد اخترع الصينيين الطباعة بواسطة مجموعة من الحروف المطبوعة القابلة للتحريك وبهالطريقة طبعت الكثير من الأعمال الفلسفية والعلمية والأعمال الكلاسيكية والموسوعات واللي عادة ما تكون مدعومة بالصور المطبوعة وحدث ارتفاع في أعداد المدارس والأكاديميات الخاصة نتج عنه في القرن الثاني عشر تأسيس الجامعة الوطنية هذا إلى جانب الكثير من الاختراعات اللي سهلت الحياة اليومية مثل العملات الورقية اللي ظهرت لأول مرة في التاريخ في الصين خلال هذه الحقبة وانتشار نظام الامتحان لاختبار موظفي الدولة وكان تميز الصينيين عن غيرهم يكمن في الناحية العملية كما يشير إلى ذلك توبي هاف في كتابة فجر العلم الحديث الإسلام والصين والغرب حيث يقول كانت الحضارة الصينية أكفأ بكثير من الحضارة الغربية في تسخير المعرفة الإنسانية الطبيعية للحاجات البشرية العملية وهو بطبيعة الحال يقارن الصين بأوروبا بعد عصر النهضة وليس قبلها فكيف لو قارنها بما قبل عصر النهضة بعد هذه الرحلة السريعة من الغرب إلى أقصى الشرق خلال حقبة زمنية واحدة يظهر لنا بشكل واضح تباين الأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من جوانب الحياة فأثناء مرحلة الانحطاط اللي عاشها الغرب كانت حضارات الشرق تتنعم بأنوار العلم والازدهار الحضاري لذلك من الخطأ اقتباس مصطلح العصور الوسطى واستعماله لوصف مرحلة من مراحل تاريخنا الإسلامي فهو وصف غير بريء ويحمل دلالة سلبية تخص ثقافة أخرى ومنطقة جغرافية مختلفة الأمر الآخر اللي يجب علينا التوقف عن استعمال هذا المصطلح لما نتكلم على تاريخنا أن مصطلح القرون الوسطى ينطلق من المركزية الغربية بمعنى أن يصبح التاريخ الأوروبي هو تاريخ العالم وليس تاريخ أوروبا وهذا غير صحيح وينبهنا المسيري لهذه النقطة لما قال أن المصطلح المستورد من حضارة أخرى يحمل وجهة نظر صاحبة وكثيرا ما يضع صاحب المصطلح نفسه في المركز ويعيد ترتيب التفاصيل حسب ما يتفق ورؤيته إلى اللقاء

Summarized by © lakhasly.com